ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Huda Ali Haider

Al - Iraqia University-College of Arts

Email: hudaali441@gmail.com

Keywords:

Thieves , Bandits , Tramps , Heroism , Rebellion

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 25.Mar.2025

Accepted 17.Apr.2025

Published 25.May.2025

Thieves and Bandits - A Study in Social Formation

A B S T R A C T

One of the common story patterns in literature is the story of thieves or tales of thieves. These thieves are tramps, thugs .They are the poor, the hungry, and the unemployed, who have been crushed by poverty and unemployment due to the mismanagement of leaders and rulers and their inattention to the interests of the people.

Two things brought them together historically, socially and artistically: The first: Affiliation to a specific social circle, class and social ostracized from higher social groups, they are in this respect groups living on the margins of society. And the second: They are all in a state of conflict with this society that rejected them, so they rejected their bitter reality and rebelled against their society. They tried to revolt against it, even though the two sides of the conflict were unequal, but by doing so, they declared their rebellion against some layers of this society and revolted against those in charge of it, in order to obtain illegally what they perceive as their legitimate right.

These sects of thieves and rebels aim to condemn a certain era and revolt against certain classes, which are destined to monopolize power or money or both.

Naturally, this rebellion has its social and cultural connotations, just as it had its political, economic and social justifications and motives, especially in times of political rupture or historical transformation.

Through this study, we hope to revisit the history of the public's inheritance, uprisings, and popular movements, especially those led by the chattar, al-Ayyarun, and those who are similar to them who have been living on the margins of society, at the foot of the social entity, who are outlaws of the positive law in the knowledge of the authority and the upper classes, as they are not thieves in the traditional evil sense. These are the first to be fought by popular miserliness, but they are rebels with a cause, whose legitimate means were blocked, so they found only banditry as a way of expressing themselves and announcing their cause.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol59.Iss2.4341

العيارون والشطار – دراسة في التكوين الاجتماعي_

م.د. هدى علي حيدر
الجامعة العراقية ــ كلية الآداب

– الملخص:

من الأنماط القصصية الشائعة في الآداب العالمية قص اللصوص أو حكايات الشطار والعيارين، هؤلاء اللصوص من الصعاليك والشطار والعيارين والفتيان والزعار وأصحاب المهن المحقرة وأشباههم من المعدمين والفقراء والجياع والعاطلين عن العمل، الذين طحنهم الفقر وأعجزتهم البطالة، بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن مصالح العباد.

هذا وقد جمع بينهم في صعيد واحد تاريخياً واجتماعياً وفنياً أمران: الأول: الانتماء إلى دائرة اجتماعية معينة، منبوذة طبقياً واجتماعياً من الفئات الاجتماعية الأعلى، فهي من هذه الناحية جماعات تعيش على هامش المجتمع. والثاني: البطولة خارج القانون، فهم جميعاً في حالة صراع مع هذا المجتمع الذي رفضهم، فكان أن رفضوا واقعهم المرير، وتمردوا على مجتمعهم. وحاولوا القيام بالثورة عليه، على الرغم من عدم تكافؤ كفتّي الصراع، ولكن حسبهم من وراء ذلك إعلان تمردهم على بعض طبقات هذا المجتمع، والثورة على القائمين عليه، لينالوا بأسلوب غير شرعي ما يتصورون أنه حق شرعي لهم.

هذه الطوائف من اللصوص والمتمردين أنما تهدف إلى إدانة عصر بعينه والثورة على طبقات بعينها، قُدِّر لها أن تستأثر لنفسها بالسلطة أو المال بهما جميعاً.

وطبيعي أن يكون لهذا التمرد دلالاته الاجتماعية والثقافية، مثلما كانت له مبرراته ودوافعه وبواعثه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولاسيما في عصور التمزق السياسي أو التحول التاريخي.

ولهذا نطمح من خلال هذه الدراسة في جانبها التاريخي والاجتماعي أن يعاد النظر في تاريخ توارث العامة وانتفاضاتها وحركاتها الشعبية وبخاصة تلك التي تزعمها الشطار والعيارون وأشباههم الذين ظلوا يعيشون على هامش المجتمع، وفي سفح الكيان الاجتماعي، من الخارجين على القانون الوضعي في عرف السلطة، والطبقات العليا، فهم ليسوا لصوصاً بالمعنى التقليدي الشرير، فهؤلاء أول من يحاربهم البخل الشعبي، وإنما هم متمردون أصحاب قضية، سدت في وجوههم السبل الشرعية أو المشروعة، فلم يجدوا إلا اللصوصية والشطارة والعيارة وقطع الطريق سبيلاً للتعبير عن أنفسهم والاعلان عن قضيتهم.

الكلمات المفتاحية: العيارون ، الشطار ، الصعاليك ، البطولة ، تمرد

– توطئة: البطائح:

شهدت منطقة جنوب العراق وعلى مر العصور التاريخية ونخص بالذكر خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، ثورات وانتفاضات كثيرة منها ثورة الزط (٢٠٥_٢١٩هـ) (البلاذري، دون تاريخ، صفحة ٣٦٨)؛ (الفراهيدي، دون تاريخ، صفحة ج٧، ٣٤٧)؛ (الأثير، ١٩٩٧، صفحة ج٦، ١٦)، وثورة الزنج (٢٥٥_٢٧٠هـ) (الأثير، ١٩٩٧، صفحة ج٧، ٢٠٥)؛ (الطبري، دون تاريخ، صفحة ج٧، ٥٤٣)؛ (المقدسي، ١٩٠٩، صفحة ١١٨_١١٩)، وحركة عمران بن شاهين (الصولي م.، ١٩٧٩، صفحة ٨٥_٨٦)؛ (القلقشندي، ١٩١٣، صفحة ج١، ٣٤٥)؛ (مسكويه، ١٩١٤، صفحة ج٢، ١١٩)، الذي عارض سلطة البويهيين لمدة أربعين عاماً، وفتنة القرامطة والبريديين، والتي عدّت كلها

من الحركات والفتن التي جرت على الدولة مشكلات كثيرة منها المالية والحربية، فأرهقت الدولة واتعبتها في تسيير الحملات وفشل البعض منها، فهذا ما يدلل على مدى الضعف التي وصلت إليه الخلافة العباسية.

وأن الذين انتفضوا في منطقة البطائح ضد الخلافة العباسية قد استفادوا من هذه المنطقة والتي عدّت مكان استراتيجي لمن كان يريد القيام بحركات معارضة أو الخروج ضد الخلافة العباسية، وذلك بفضل المميزات الطبيعية التي جعلتها منطقة محصنة لا يمكن العبور إليها إلا بالمراكب أو القوارب الصغيرة.

- البطائح لغةً واصطلاحاً:

البَطيحة بالفتح ثم الكسر وجمعها البطائح، والبطحاء واحد هو المسيل الوادي ذو تراب لين والأرض الواسعة، وسميت بطائح واسط لأن المياه تبطحت فيها وسالت واتسعت في الأرض (الفراهيدي، دون تاريخ، صفحة ج٣، ١٧٤)؛ (منظور، ٢٠١١، صفحة ج٢، ١٠١).

ورد ذكر البطائح في كتب الجغرافيين وكتب الرحلات وكتب البلدان، فضلاً عن المادة المتوفرة في كتب الفقه والخراج، إذ يمكن التعرف على موقعها وحدودها وسكانها (حوقل، ١٨٨٣، صفحة ٨٢)؛ (اليعقوبي، ١٩٨١، صفحة ٣٢٣).

إن كتب الجغرافيين والرحلات تصنف البطائح نسبة إلى أقرب المدن إليها، فيقال بطائح البصرة وبطائح واسط وبطائح الكوفة (رسته، ١٨٩١، صفحة ٧٤)؛ (حوقل، ١٨٨٣، صفحة ٨٢).

فيطلق على البطائح: المنخفض الذي ينغمر بالماء بشكل منتظم، وقد أطلق هذا الاسم الجغرافيين العرب خلال العصر العباسي على المستنقعات الواقعة في القسم الأسفل من الفرات بين الكوفة وواسط شمالاً والبصرة جنوباً (اليعقوبي، ١٩٨١، صفحة ٣٢٣).

وورد عن البطيحة: "وهي المسيل الواسع فيه دقائق الحصى، ما بين واسط والبصرة وهو ماء مستنقع لا يرى طرفاه من سعته وهو مغيض ماء دجلة والفرات وكذلك مغايض بصرة والأهواز والبطيحة كانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة" (الحموي، ١٩٧٧، صفحة ج١، ٤٤٦)؛ (الزبيدي، ١٩٩٤، صفحة ١٥).

- الإطار الجغرافي للبطائح:

حدد الجغرافيون موقع البطائح، فهي تقع في نهر دجلة على جانبيه الشرقي والغربي بين الخابور الذي في أرض الجزيرة حيث قرقيسيا؛ وفي منطقة البطائح كان مجمع هذه المياه وهي ثلاثون فرسخاً، وهي خزانة أهل البصرة (الحموي، ١٩٧٧، صفحة ج٤، ٣٢٨).

تمتد البطيحة من الشمال الغربي إلى جوار الكوفة ويجري الفرات إلى البطيحة جنوبي واسط وإلى الشمال من البصرة (الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ١٩٩٥، صفحة ٢٤).

يلعب المناخ دوراً كبيراً في التأثير على الموقع والسكان وعلى التربة والزراعة، فقد كان مناخ منطقة البطائح حاراً رطباً موبوءً بالملاريا؛ وأن هواء البطائح وخم؛ ومن مميزات الجو في الأهوار والبطائح هو ارتفاع درجات الحرارة فيها (الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ١٩٩٥، صفحة ٢٤)؛ (ليسترنج، ١٩٨٥، صفحة ٤٣)؛ (الموسوي، ١٩٨٢، صفحة ٧٧).

عدّت منطقة الأهوار جنوبي العراق عالية الخصب، وذلك بسبب وفرة المياه وشدة الحرارة في الصيف وكثرة الرطوبة والبرودة النسبية وقلة الأمطار في الشتاء، قد جعلت منها بيئة مميزة لأنواع معينة من النباتات (المقدسي، ١٩٠٩، صفحة ١١٩).

كانت منطقة الأهوار والمستنقعات لها تأثير على السكان، إذ أثرت على حالة السكان الصحية، فسببت في انتشار الملاريا والبلهارزيا وغيرهما من الأمراض والأوبئة (خليل، ١٩٧٩، صفحة ٦٥).

وعليه، فأن طبيعة التكوين الجغرافي وظروف الحياة الصعبة في منطقة البطائح جعلتها شبه معزولة لدرجة ملحوظة، وجعلت التغلغل فيها عسيراً، لذا أصبحت ملجأ وملاذ للثوار واللصوص.

- **"الشطار والعيارون واللصوص في مؤلفات الجاحظ_ تأصيل تاريخي":**

يضع الجاحظ في مؤلفاته الشطار والعيارين واللصوص في مكانة واحدة، وعلى الرغم من تفاوت المفاهيم الخاصة لهذه الفئات التي تمثل الخروج على القانون، وهم منتشرون كصعاليك الجبال، ولصوص الشام، والزط والبعض من الأعراض، ومنهم في بعض المدن الفارسية (الجاحظ أ.، البخلاء، ١٩٨٠، صفحة ٧٠)، والعيارون "إذا تحركوا ببغداد هلكوا والفساد كثير" (المقدسي، ١٩٠٩، صفحة ١٣٠).

وهناك صفات للشطار، ومن وصاياهم أن "اجعل لهوك الحمام، وهارش الكلاب وأياك والكبائش واللعب بالصقورة والشواهين، وأياكم والفهود... وعليكم بالنرد ودعوا الشطرنج لأهلها... والودع رأس مال كبير... ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقناع، والقلنسوة (سيده، دون تاريخ، ج١، صفحة ٨٢) كفر، والخف شرك" (الجاحظ أ.، ١٩٨٦، ج٢، صفحة ٣٦٧).

ومن وصاياهم الأخرى بالحذر من حب النساء... واتخاذ نبيذ التمر (الجاحظ أ.، ١٩٨٦، ج٢، صفحة ٣٦٦_٣٦٧).

وقد تعددت حيل اللصوص وطرقهم في الاحتيال على الناس، فمنهم من يعمل بالكف، ومنهم من يحتال في الصف، ومن يخنق بالدف (مسكويه، ١٩١٤) (الهمذاني، ١٩٩٣، صفحة ١٢٩_١٣٠).

ويروي الجاحظ بعض الطرق المستخدمة في السرقة من قبل اللصوص، ومنها بأنه: "كان بالمدائن تمار، وكان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال فربما احتبس فاتهمه بأكل التمر. فسأله يوماً فأنكر، فدعا بقطنة بيضاء، ثم قال: أمضغها، فمضغها، فلما أخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة. قال: هذا دأبك كل يوم، وأنا لا أعلم. أخرج من داري" (الجاحظ أ.، البخلاء، ١٩٨٠، صفحة ١٨٩).

ومن طرق الاحتيال الأخرى، بأننا نرى "كل من كان في يده كيس أو درهم أو حبل، أو عصا فأنه متى خالط عينيه النوم استرخت يده وانفتحت أصابعه. ولذلك يتثاءب المحتال للعبد الذي في يده عنان دابة مولاه، ويتنادم وهو جالس، لأن من عادة الإنسان إذا لم يكن بحضرته من يشغله ورأى إنساناً قبالته يتثاءب أو ينعس، أن يتثاءب وينعس مثله. فمتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العنان، وقد خامره سكر النوم... ركب المحتال الدابة ومرّ بها" (الجاحظ أ.، ١٩٨٦، ج٣، صفحة ٤٠٩).

- **"الشطار والعيارون في التاريخ":**

- **"لمحة تاريخية عن الصعاليك":**

من المعروف أن حركة الصعاليك، في العصر الجاهلي قد وجهت نشاطها أساساً إلى الهيئة الاجتماعية، وغايتها التمرد على النظام الاجتماعي والاقتصادي لفئة اجتماعية وجدت نفسها ضحية هذا النظام الجائر، فلم تقبله ورفضته

وتمردت عليه، وكانت النتيجة أن شطروا على قبائلهم وانفصلوا عنها. وبدأ الصراع بين الجانبين، منذ أن وجد هؤلاء الخلعاء الصعاليك أنفسهم خارج الشرائع والأعراف والتقاليد القبلية، محرومين من كل شيء، لأسباب بيئية واقتصادية واجتماعية (خليف، ١٩٥٩، صفحة ١٨١).

وعلى الرغم من تعدد طوائف الصعاليك _فمنهم الخلعاء والأغربة والفقراء_ وتعدد وسائلهم فأن الذي يعنينا هنا هذا الفريق من الصعاليك الذي صدر في سلوكه عن موقف فروسي نبيل، أو احساس مرير بالقهر الاجتماعي، لا عن نزعة شريرة دموية حاقدة، ففرض نفسه بقوة السيف عادةً، وتحدى المجتمع، يغتصب منه ما يراه أنه حقه المغتصب أو المسلوب (الجاحظ أ.، دون تاريخ، صفحة ج٢، ٢١٢).

فقد مضى هذا الفريق خلف أولئك الأغنياء المترفين، وتربصوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الجزيرة العربية، ينبهون ويسلبون، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم، وآلوا على أنفسهم أن يثأروا من مجتمعهم، وأن يفرضوا وجودهم عليه، وأن يسعوا إلى تحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية بين طبقات هذا المجتمع بعد ذلك. وبذلك تكون _الصعلكة_ نزعة إنسانية نبيلة، وضريبة يدفعها القوي للضعيف، والغني للفقير، تهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع، طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، فالغزو والإغارة للسلب والنهب، لم يعد عند أغلب الصعاليك غاية، بل أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعة إنسانية وفكرة اشتراكية (خليف، ١٩٥٩، صفحة ٣٠)؛ (أمين، ١٩٥٢، صفحة ١٨).

ويشار إلى وصف الصعاليك بالشطار قديماً، بل لحقتهم صفة "العيارة" أيضاً، كما ذكر الميداني في قصة "فتكة" الصعلوك الجاهلي (البراض بن قليل الكناني) حين وصفه بأنه "كان عياراً فاتكاً، يجني الجنايات على أهله، فخلعه قومه، وتبرءوا من صنيعه ففارقهم، وكان النعمان يستخدمه في حراسة قوافله من اللصوص وغزوات القبائل" (الميداني، ١٩٧٢، صفحة ج٢، ٨٧_٨٨)؛ (البكري، ١٩٥٨، صفحة ١٥٣).

وإلى جانب الشطارة والعيارة التي وصف بها صعاليك الجاهلية، كان يحلو لهم أيضاً أن يطلقوا على أنفسهم "الفتيان" لاتصافهم بالفتوة بالمعنى الفني الدال على النبالة والمروءة والشهامة والفروسية والشجاعة والنجدة وإغاثة الملهوف ونكران الذات وروح التضحية، وغيرها من مقومات "الفتوة الشعبية" (النجار، ١٩٨٩، صفحة ١١٣).

إن كثيراً من قصص الصعاليك التي استطاعت أن تحفر لها مكاناً في الذاكرة الشعبية وأن تبقى حية في الوجدان الشعبي في العصر الإسلامي، وأن ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي وفكرتها الإنسانية سوف تلتقي مع ظاهرة الشطارة والعيارة في المجتمع الإسلامي (النجار، ١٩٨٩، صفحة ١١٣_١١٤).

وكانت ظاهرة البخل وحدها مبرراً كافياً لهؤلاء الصعاليك اللصوص والعيارين الذين ينتقمون من أصحابها، تقديراً منهم لظاهرة الجود. فكان اللجوء إلى أسلوب السرقة لهذا السبب موضع فخر ومصدر تباه، ودلالة بطولة عند هؤلاء الصعاليك؛ فقد قيل لإعرابي أتسرق بالنهار؟ فقال:

معاذ الله أن أسرق بليل ولكني أجاهر بالنهار (الأصفهاني، ١٩٦١، صفحة ج٣، ١٩٠_١٩١).

- "أثر السياسة البويهية والسلجوقية على الخلافة العباسية (٣٣٤_٥٤٨هـ)":

منذ سنة (٣٢٤هـ) شهدت المؤسسة السياسية في العراق تحديات ومواجهات كبيرة. كانت هي الأساس في وصف هذه المرحلة عامة بمدة التسلط الأجنبي، فبين سنة (٣٢٤هـ) و(٣٣٤هـ) هيمن عدد من القادة الأتراك والديالمة، وهم يحملون لقب أمير الأمراء لقبّهم به الخليفة الراضي بالله (٢٩٧_٣٢٩هـ)، وسلمهم مقاليد الأمور السياسية والإدارية، ولعل السبب

في ذلك أن الخليفة الراضي بالله واجه أزمة مالية حادة لم يستطع بسببها توفير رواتب وأرزاق الجند، لذلك استوزر عدة وزراء بهدف حل هذه المشكلة المالية لكنه لم يفلح، فكان لا مفر من أن يستنجد بأية قوة سياسية تساعده في سد أفواه الجنود، فطلب مساعدة محمد بن رائق التركي ضامن واسط فوافق على ذلك على أن يتقلد مقاليد الأمور (مسكويه، ١٩١٤، صفحة ج٢، ٣٥٢).

وقد انحصرت سلطات الخليفة الراضي بالله في بغداد وبعض السواد وبطلت الدواوين وضعف أمر الخلافة (الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ١٩٤٥، صفحة ٢٥٠_٢٦١).

ففي هذه السنوات العشر ذاق الناس صنوفاً من الأذى والظلم الاجتماعي والاقتصادي وانعدام الأمن.

وفي سنة (٣٣٠هـ) ذكر أن الغلاء اشتد في العراق وبالأخص في أسواق بغداد، فبلغ كر الحنطة مائتين وعشرة دنانير وبلغ سعر كر من الشعير مائة وعشرين ديناراً وكان مادة غذائية أساسية عند الفقراء؛ ثم تطاير سعر كر الحنطة فبلغ ثلاثمائة وستة عشر ديناراً، فأضطر الفقراء والمعدومون إلى أكل الميتة، ثم انتشر الوباء فكثر الموت بين الناس، وكان أمير المؤمنين يلاحق الناس في عيشهم فيصادر أموالهم وما يمتلكون قوتاً من الحنطة فيأخذ ما لديهم من ذلك، فلحق الناس عذاب عظيم (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٦، ٣٢٥_٣٣٤).

وورد في سنة (٣٣٢هـ): "كثرت الكبسات بالليل من اللصوص بالسلاح والشمع وتحارس الناس بالليل بالبوقات" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٦، ٣٢٥).

وفي سنة (٣٣٣هـ): "كثرت الكبسات، ووثق اللصوص بالمصانعات والغرم، فكبسوا الناس ليلاً ولم يهابوا نهاراً" (الصولي م.، ١٩٧٩، صفحة ٢٧٦).

مع هذه الحوادث كلها بدأت سلسلة من الأحداث السياسية المتواصلة من العواقب على المجتمع العراقي، فأعقب مرحلة أمير الأمراء، مرحلة تسلط أجنبية أخرى، هي المرحلة البويهية.

تسلط البويهيون على بغداد أكثر من قرن؛ أدخلوا الكثير من عناصر التفكك والاضطراب في المجتمع العراقي، ولعل الأمر الذي ظهر وبرز فيه النفوذ البويهي هو السياسة (الباحثين، ١٩٨٣، صفحة ٤٣٩).

يقول البيروني: "إن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المقتفي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه والذي بقي في أيدي الخلافة العباسية أنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملكي" (البيروني، ١٩٢٣، صفحة ١٣٢).

فالبويهيون جردوا الخليفة العباسي من امتيازاته وسلطاته الدنيوية واعتدوا على صلاحياته الخاصة، وصادروا أمواله وناصبوه العداء، فخلعوا عدداً من الخلفاء، ونصبوا آخرين ممن يخشون سطوتهم، ولعل موقف الخليفة العباسي المطيع لله (٣٠١_٣٦٣هـ) خير دليل على ضعف الخلافة العباسية.

ففي سنة (٣٦١هـ) طلب الأمير البويهي بختيار بن معز الدولة المعروف بانصرافه إلى ملذاته وشؤونه الخاصة من الخليفة أن يمده بالأموال بذريعة أن البويهي يروم تجديد حملة عسكرية لمحاربة الروم الذين نشطوا في مهاجمة مدن الثغور الإسلامية في بلاد الشام، ولما كان الخليفة لا يملك من الأمر شيئاً (مسكويه، ١٩١٤، صفحة ج٢، ٢٠٧، ٣٤٣، ٣٧٦)؛ (الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ١٩٤٥، صفحة ٢٤٩_٢٥٢).

لم يحقق البويهيين الديالمة الأمن الاجتماعي والسياسي والعدالة الاجتماعية خلال مدة تسلطهم التي بلغت مائة وأربع عشر سنة؛ فمن الواضح أن السيطرة البويهية على العراق باستثناء مدة قصيرة جداً اتسمت بالفوضى والاضطراب السياسي والاقتتال المستمر بين أفراد الأسرة البويهية على السلطة بينهم وبين أفراد جيشهم الديلمي وبين الديلم في جيشهم والأتراك

فانعدم الأمن الداخلي وتعاظمت الفتن بين أهالي المحلات في بغداد، وساعد البويهيون على النزاعات الطائفية بين أفراد المجتمع العراقي بصورة مستمرة، فتفاقمت الانقسامات الطائفية وراح أهالي بغداد يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم، كما حصل في سنة (٣٣٨هـ) (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٦، ٣٦٣_٣٦٤).

هذا وقد أدى فقدان الأمن والاستقرار إلى تزايد نفوذ اللصوص وقطاع الطرق، فنهبوا أموال الناس والتجار، وتعاظم نفوذ القبائل البدوية المتنقلة على طول طرق الحج والتجارة، فهاجموا الحجاج ونهبوهم، لأن الغزو أصبح وسيلة عيشهم، "أرزاقهم في ظلال رماحهم" (خلدون، دون تاريخ، صفحة ١١٨).

فرض البويهيون الضرائب الكثيرة على الناس وعلى أصحاب الحرف الصغيرة، ويبدو أنهم استخدموا نفوذهم المستوحى من مركز الخليفة الديني الشرعي، فضلاً عن اشباع رغبات خاصة في السيادة على الآخرين؛ الأمر الذي ساعد على شيوع احتكار المواد الأساسية الغذائية وهو ما جلب المصائب والويلات وساعد على ظهور طبقات اجتماعية_ اقتصادية.

لا تكاد تكون سنة من سنوات السيطرة البويهية (٣٣٤_٤٥٤هـ) والسلجوقية (٤٢٩_٥٥٢هـ) إلا قد قام العيارون والشطار بحركاتهم في بغداد ومدن العراق الأخرى، والتي لها علاقة وثيقة بالمتغيرات التي سادت المجتمع العراقي.

يذكر ابن الجوزي عن هذه الحركات باعتبارها ظاهرة اجتماعية زادت في المجتمع. ففي سنة (٤٢١هـ) كبس جماعة من العيارين يزيدون على (٥٠) رجلاً على مصلحي ينذرهم بنهر الدجاج فقتلوه وقتلوا قوماً كانوا معه وأحرقوا الدار ولم يتجاسر أحد من الجيران أن ينذر بهم خوفاً منهم (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٨، ٤٧).

وفي سنة (٤٢٣هـ) "ثار أهل الكرخ بالعيارين وطلبوهم فهربوا فكبسوا دورهم ونهبوا سلاحهم، وكان سبب هذا الفعل أن العيارين دخلوا ليلاً على أحد البزازين فأخذوا ماله فتعصب له أهل سوقه فرد العيارون بعض ما أخذوا" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٨، ٦٢).

وغيرها من حوادث العيارين والشطار في السنوات اللاحقة فهذه الأحداث تشير إلى ارتباك الأوضاع السياسية وارتباكها يؤدي إلى خلق ظاهرة اجتماعية وهي السلوك الجمعي (الكعبي، ١٩٧٢، صفحة ١٤٠_١٤١) والتي لها جانبان سلبي عسكري ضار يتمثل بالشطار أو كما عرفوا فيما بعد بالعيارين، وسلوك مدني إيجابي بالدعوات المصلحة الهادفة إلى السيطرة على هذه الفوضى وإصلاح المجتمع والضرب على أيدي الشطار.

اتخذ البويهيون حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مدينة بغداد مركزاً لإدارتهم، ولذلك فأن قوة العيارين ونشاطهم ارتبط بمدى قوة الأمير البويهي أو ضعفه، أما في العصر السلجوقي فأن السلاطين جميعاً كان يقطنون خارج العراق واتخذوا مدن فارس مراكز لإدارتهم، فأبتلى المجتمع العراقي ولاسيما المجتمع البغدادي بتعسف موظفوا هؤلاء السلاطين الذين لا همَّ لهم إلا مصادرة أموال العراقيين، وتوفير الأموال إلى السلطان ليرضى عنهم، ويبقيهم في مناصبهم، ومن بين هؤلاء الموظفين موظفوا الشحنة والمستوفي، فالأول يختص بالجوانب العسكرية والأمنية، والثاني بالجوانب الإدارية (القزاز، ١٩٧١، صفحة ١٨).

والشحنة وظيفة دخلت العراق بدخول السلاجقة الأتراك وظلت مستعملة كمؤسسة عسكرية خلال العصر المغولي، فلما كان السلطان السلجوقي بعيداً عن العاصمة فأنه وضع بدلاً عنه هذا الموظف، ليقوم بعدة مهمات منها: تمثيل السلطان، وتتبع اجراءات الخليفة وممارساته، وابلاغ السلطان عن أي إجراء يتضارب مع نفوذه، وتتبع أحوال الناس بالنسبة إلى مواقفهم من السلطان، والضرب بقوة وقسوة على أية محاولة ثورية ضد السلاجقة (الجوزي ش.، ١٩٥٢، صفحة ج٢، ١٨٧).

اعتاد السلطان السلجوقي أن يختار شحنته من بين قادته ممن يوصف بالقسوة والجرأة في قمع الثورات التي يقوم بها أهالي بغداد ضد السلطان، والوظيفة يطلق عليها أيضاً "شحنكية بغداد"، فكان السلطان عندما تنتهي زيارته إلى العاصمة ويتركها متوجهاً إلى عاصمته الإدارية يعين شخصاً للشحنكية، وردت أسماء بعضهم مثل الشحنة بكبة والشحنة مسعود بلال وغير ذلك من الأسماء التركية، فأن أهالي بغداد ينظرون إلى الشحنة وكأنه والي بغداد، ترجع إليه مقاليد الأمور الإدارية والسياسية (القيسي، ٢٠٠٧، صفحة ٧٥_٧٦).

وصف ابن الجوزي الكثير من هؤلاء الشحنة بأنهم ظلمة وكان الناس في محنة شديدة خلال ولايتهم. فقد كانت صلاحيات الشحنة وسلطانه واسعة ترتبط بمكانة السلطان وقوة نفوذه، ولذلك استثمر هؤلاء الموظفون وظيفتهم، فجمعوا الأموال وامتلكوا الاقطاعات والأملاك (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ٤٦).

- "الشحنة بكبة":

عين هذا الشحنة على أثر فشل الخليفة (المسترشد بالله) (٤٨٥_٥٢٩هـ) في حربه مع السلطان (مسعود_ غياث الدين أبو الفتح مسعود أبو محمد بن ملكشاه السلجوقي) (٤٢٦_٥٤٧هـ)، وصل (بكبة) ومعه كتاب إلى أهالي بغداد بلسان الخليفة ورد فيه: "فقد ندب من الجانب الغياثي يقصد السلطان غياث الدين والدنيا _هذا شحنة" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ٤٦).

كان وصول هذا الشحنة عن السلطان موضع سخط أهالي بغداد يوم عيد الفطر، فثاروا على خطيب الجامع وكسروا المنبر والشباك، وخرجوا إلى الأسواق يبكون ويصرخون على خليفتهم، فأمر الشحنة أعوانه بقتال الناس، وكان (بكبة) يريد أن يظهر هيبته ونفوذه، فتحدى الأهالي بمروره في الأسواق معلناً عن نفسه، لكن العوام لم يذعنوا ورجموه بالحجارة، فنشب القتال بين الناس وأصحاب الشحنة، راح ضحيته (١٥٣) رجلاً، ولم يكتف أصحاب الشحنة بذلك، وإنما رموا أبواب دار الخلافة الحديدية التي كانت على السور، ففتحوا فيها فتحات وأشرفت المدينة على النهب لولا أوامر الشحنة بأن "لا ينزل أحد في دار أحد ولا يؤخذ من أحد شيء وإنما جئنا لنصلح وأن السلطان سائر إلى العراق بين يدي أمير المؤمنين فسكن الناس" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ٤٦).

كانت أول أعمال (بكبة) بعد دخوله بغداد وسيطرته على الأوضاع، التدخل في ضرب النقود، فأتفق هو وموظف سلجوقي آخر هو العميد على تعطيل دار الضرب التابعة للخليفة، وعملا دار ضرب خاصة بهم جعلوها في دار الشحنة، وبذلك وضعا أيديهما على أهم مورد مالي كبير، كذلك ألقيا القبض على عامل الجوالي (القلقشندي، ١٩١٣، صفحة ج٣، ٤٥٨) وصادرا الأموال، ثم طلبا من ضامن العقار أن يجبي أصحاب الدكاكين والعقار، ويسلم المبالغ إليهما، ثم قبضا على (ابن الصائغ)، وهو متولي التركات الحشرية (القلقشندي، ١٩١٣، صفحة ج٣، ٤٦٢) قائلين له: "نريد ما حصل عندك من التركات" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ٤٦_٤٧). ثم تدخلا في أملاك الخليفة، وولي عهده فاستوليا على قرى ولي العهد، وحجزوا غلاتها، ولم يستطع ولي العهد على رفع الحجز إلا بعد أن دفع إليهما (٦٠٠ ديناراً)، ووصل إلى بغداد في تلك الأثناء تمر كثير للخليفة فاستوليا عليه وباعاه وأخذ ثمنه (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ٤٧).

قام (بكبة) بهذه الأعمال لتوفير الأموال اللازمة له وللسلطان الذي كان في طريقه إلى بغداد، ولم يأبه الشحنة بمعارضة الناس وثورتهم، بل مضى في تطبيق سياسته الشديدة في كتم أنفاس الناس وتفتيت قوة الخليفة (المسترشد) بهدم سور بغداد الذي أشرف الخليفة عليه، لحماية العاصمة، أن هدّ هذا السور يمثل عنصراً من عناصر تفتيت المقاومة العراقية (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ٤٧_٤٨).

- **"الشحنة مسعود بلال":**

هذا وكما حكم بغداد شحنة آخر عرف بظلمه الشديد وتعسفه، هو (مسعود بلال) الذي قدم بغداد سنة (٥٤٩هـ)، فلما وصل وعسكره العظيم من الأتراك إلى شهربان يرافقه البقش فنهبوا الناس، فأستدعى الوزير للخروج إليهما، وكانا قد حثّا السلطان (محمد) على قصد العراق فلم يتهيأ له فاستأذناه في التقدم أمامه فأذن لهم فجمعا جمعاً كثيراً (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ١٥٦).

لم يكن الشحنة مصدر ظلم للجمهور فحسب، بل وتعداه إلى الخليفة نفسه، فقد تأذى من مواقفهم العدوانية، وكانوا يمثلون جواسيس لسلاطينهم على الخليفة، ففي سنة (٥٢٠هـ) كان التركي (سعد الدولة برنقش الزكوى) شحنة بغداد، التي هددها السلطان (محمود السلجوقي)، وقد ورد أن هذا الشحنة خرج من العاصمة في الوقت الذي كان فيه الناس يعانون من أخبار هجوم (محمود)، وتوجه إلى السلطان: "يشكو من استيلاء الخليفة _يقصد من نفوذ الخليفة المسترشد_ فأوعز على دخول بغداد" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٩، ٢٥٥)؛ (فهد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥٥٢_٦٥٦ هـ)، ١٩٧٣، صفحة ٣٢٨).

وقد سبق لهذا الشحنة أن قام بهذا الدور الظالم في السنة السابقة (٥١٩هـ)، عندما اجتمع بالسلطان: "وأكثر الشكوى من الخليفة وحقق في نفسه أن الخليفة يطلب الملك، وأنه خرج من داره نوبتين وكسر من قصده، وأن لم يدبر الأمر في حسم ذلك اتسع الخرق وصعب الأمر، وسيتضح لك حقيقة ذلك إذ أردت دخول بغداد والذي يحمله على ذلك وزيره أبو علي بن صدقة وقد كاتب أمراء الأطراف وجميع العرب والأكراد فحصل في نفس السلطان من ذلك ما دعاه إلى دخول بغداد" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٩، ٢٥٣).

فهذا الشحنة قد أدى دوراً ماكراً وجاسوسياً ضد أهالي بغداد، وكان من جراء عمله التآمري هذا أن هجم (محمود) على بغداد، وما عاناه أهالي المدينة من خنك. يقول ابن الجوزي واصفاً هذه الحالة: "وانزعج الناس وعبروا إلى الجانب الغربي فكثر الزحام على المعابر والسفن وبلغت أجرة الدار بالجانب الغربي ستة دنانير وخمسة، وتأذوا غاية التأذي" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٩، ٢٥٥).

_ **"الشطار والعيارون":**

ظهرت تنظيمات العيارين التي وصفها أحد الكُتاب الغربيين بالحركات الشعبية في مدينة بغداد على وجه الخصوص، لكن هذا لا يعني عدم ظهورها في مدن العراق الأخرى، والمؤرخون المحدثون يرجعون جذور هذه الحركة إلى الحرب الأهلية بين الأخوين (الأمين والمأمون)، ثم خلال صراع الخليفة (المستعين) مع الجند الأتراك، ولكن نفوذ الحركة وقوتها بدأ يظهر بصورة مستمرة خلال عصر التسلط البويهي (الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ١٩٤٥، صفحة ٢٨٣_٢٨٤)؛ (فهد، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، ١٩٦٧، صفحة ٢٨٩_٢٩٥).

ولذلك فمن المعتقد أن نشاط هذه الحركة وقسوتها أو ضعفها قد ارتبط كثيراً بالهيمنة التي فرضها البويهيون والسلاجقة، لكن الكثير من الأحداث التي مارسوها يسودها عنصر السرقة والنهب والقتل والتي راح ضحيتها الأبرياء من الناس (فهد، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، ١٩٦٧، صفحة ٢٨٩_٢٩٥).

فالشطار والعيارون هم صنف من أصناف "اللصوص كالصعاليك والشطار والعيارين والفتيان... وأصحاب المهن المحقرة وأشباههم من المعدمين والفقراء والجياع والعاطلين عن العمل" (النجار، ١٩٨٩، صفحة ٧).

ظهر العيارون ببغداد في "القرن الثاني للهجرة، وكان لهم في الفتنة بين الأمين والمأمون شأن كبير" (زيدان، دون تاريخ، صفحة ج٤، ٥٦٦).

والشطار هم طائفة أخرى من "الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بأزرة الشطار وكانوا أكثر انتشاراً... من العيارين وأطول بقاء منهم" (زيدان، دون تاريخ، صفحة ج٤، ٥٦٧).

وللشطار والعيارون نشاطات عنيفة مختلفة "ولهم تنظيم عسكري يخضع لقيادة موحدة، وتنظيم مدني يرعى أمورهم الخاصة. وسرعان ما احترف بعض أفراد هذه الجماعة السرقة، وصاروا مصدراً للفوضى في الدولة" (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ٢٦٧).

ونشاطهم يثير القلق والاضطراب عند الناس، "وإن العيارين إذا تحركوا ببغداد هلكوا والفساد كثر" (المقدسي، ١٩٠٩، صفحة ١٣٠).

وأورد التنوخي بأن العيارين ثاروا سنة (٣٥٠هـ) ببغداد، وأوقعوا فتناً عظيمة، ... وغلقوا الجامع بالمدينة، فلم تصل فيه تلك الجمعة. وكان سبب ذلك، شجار وقع بين رجلين على نبيذ، فقتل أحدهم وثار أهله به، وثارت الفتنة ودخلت العامة فيها، وعظم الأمر... ولم تسكن الفتنة، فقبض على العيارين منهم والذعار (الرازي، ١٩٨١، صفحة ٢٢٢)، حتى قبض في جملتهم على عدة قضاة وشهود (التنوخي أ.، ١٩٧٣، صفحة ج١، ٨٦).

وللشطار مراسيمهم الخاصة في عملهم، وقد أوصى أحد الشطار زملاءه قائلاً: "إياكم إياكم وحب النساء، وسماع رب العود، وشرب الزبيب المطبوخ، وعليكم باتخاذ الغلمان فأن غلامك هذا أنفع لك من أخيك" (الجاحظ أ.، الحيوان، ١٩٨٦، صفحة ج٢، ٣٥٧_٣٥٨).

- **"ابرز الشطار والعيارين":**

- **"أسود الزبد":**

يذكر ابن الجوزي قصة في حوادث سنة (٣٦٤هـ)، فيقول: "أوقع العيارون حريقاً بالخشابين من باب الشعير (الحموي، ١٩٧٧، صفحة ج١، ٣٠٨) فاحترق أكثر هذا السوق الجزارين وأصحاب الحصر وصف البواري فهلك شيء كثير وزاد أمر العيارين في هذه السنة حتى ركبوا الدواب وتلقبوا بالقواد _بالقادة_ وغلبوا على الأمور وأخذوا الخفائر عن الأسواق والدروب وكان في جملة العيارين قائد يعرف بـ(أسود الزبد) لأنه كان يأوي قنطرة الزبد ويستعظم من حضر وهو عريان لا يتوارى فلما كثر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف فطلب سيفاً ونهب وأغار واجتمع إليه جماعة فأخذ الأموال واشترى جارية بألف دينار فلما حصلت عنده حاول منها حاجته فمنعته... ثم خرج إلى الشام فهلك بها" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٧، ٧٥)؛ (فهد، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، ١٩٦٧، صفحة ٢٩٢).

_ "العياران ابن بكران وابن البزاز":

إن (ابن بكران) و(ابن البزاز) هما من زعماء العيارين، ظهر نفوذهما ونشاطهما في سنة (٥٣٢هـ)، وهي سنة تصاعد فيها نشاط العيارين، حتى أن (١١) عياراً قبض عليهم فصلبوا في الأسواق (الجوزي، ١٣٥٨ هـ، ج٨، صفحة ٧٧)؛ (فهد، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، ١٩٦٧، صفحة ٢٩٧_٢٩٨).

وفي السنة التي قتل فيها الخليفة (الراشد بالله) (٥٠٢ – ٥٣٢هـ)، فانقلبت زمام الأمور في العاصمة، ولا يعرف من أمر هذين العيارين شيء عدا أنهما بعد أن أثبتا قوتهما كثر أتباعهما، وصار أحدهما يركب كالأمير في مظهره، وكان يتعهد الحماية والخفارة، وقد بلغ شأنهما وخشى والي شرطة بغداد الشريف (أبو الكرم) من تزايد نفوذهما، حتى أتهما أن يضربا النقود باسميهما، ويذكر أن صاحب الشرطة هذا حثّ ابن أخيه الذي كان مسؤولاً عن حماية محلة باب الأزج بالانضمام إلى العيار (ابن بكران)، وأن يلبس سروال الفتوة كي يتآمر عليه (القيسي، ٢٠٠٧، صفحة ٨٦).

كان لـ(ابن بكران) وصاحبه مكاناً يقطنانه، واتخذاه مقراً لعملياتهما في ضواحي مدينة بغداد، أطلق عليها السوادة، ويحتمل أن تكون السواد، أي سواد بغداد أو قرية السوادية التي تعد من قرى الكوفة أو قرية سوداء التي تقع إلى جانب بغداد (الحموي، ١٩٧٧،ج٤، صفحة ١٧٦).

- "ابن حمدي" (اللصّ الثائر):

"حكى بعض التجار البغداديين، أنه خرج بسلع له، يريد "واسط" وكان البريدي بها، والدنيا مفتتنة جداً _يقصد الفتن الداخلية والتمزق السياسي واختلال المدن_، فقطع عليه وعلى الكار _السفن_ الذي كان فيه لصّ كان في الطريق، يقال له ابن حمدي، فأقره، فسهل عليه الموت، وطرح نفسه لابن حمدي، لما سمع عنه من نخوة ومروءة يقول التاجر: وكنت أسمع وأنا ببغداد أن ابن حمدي هذا، فيه فتوة وظرف، وأنه إذا قطع الطريق لم يعرض لأرباب البضائع اليسيرة، التي تكون دون الألف درهم، وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة شيئاً قاسمه عليه، وترك شطر ماله في يديه، وأنه لا يفتش امرأة، ولا يسلبها، وحكايات كثيرة مثل ذلك، فأطمعني ذلك في أن يرقّ لي، فصعدت إلى الموضع الذي هو جالس فيه وخاطبته في أمري، وبكيت ورققته ووعظته، وحلفت له أن جميع ما أملكه قد أخذه، وأني أحتاج إلى أن أتصدق من بعده. فقال لي: يا هذا، الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فأنه قد أسقط أرزاقنا وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمراً عظيماً أعظم مما يرتكبه السلطان" (متز، ١٩٦٧، صفحة ٨٥).

ويشرع (ابن حمدي) في كشف فساد الدولة والنظام وكيف بلغ بها الأمر إلى مصادرة الضياع والدور والعقار "ويتجاوزون ذلك إلى الحرم والأولاد وهكذا يفعل الجميع، شيرزاد بغداد، والبريدي بواسط والبصرة والديلم بالأهواز... ولكنه لم يفعل مثلهم فيقره التاجر على ذلك قائلاً أعزك الله، ظلم الظلمة لا يكون حجة". وتنتهي القصة بعد ذلك، بأن تتحرك مروءة (ابن حمدي)، هذا اللصّ الثائر، ويشفق على هذا التاجر الضحية "فيأمر بإعطائه نصف ما به، ثم أنفذ معه من يوصله إلى مأمن، فالطريق فاسد" فلا يملك هذا التاجر إلا أن يعجب بـ(ابن حمدي)، ويدعو له بالخير وينصرف، ولا يفتأ يقص حكاياته ومروءاته على الناس (التنوخي أ.، ١٩٧٨، صفحة ج٤، ٢٣٨_٢٤٠).

هذا هو (ابن حمدي)، لصّ بغداد الظريف، الذي كان واحداً من رؤساء اللصوص المشهورين في القرن الرابع الهجري، وكان هذا اللصّ موضع إعجاب العامة، وقد بدأ حياته حمالاً في أسواق بغداد ثم صار "ينهب" أموال أهل بغداد وأسواقهم وتجارتهم، ويقطع الطريق ويعترض السفن التجارية النازلة إلى واسط أو الصاعدة منها؛ واشتهر عنه أنه تخلق بخلائق الفروسية، فكان لا يفتش امرأة ولا يسلبها (مسكويه، ١٩١٤، صفحة ج٢، ٥١_٥٢)؛ (الصولي أ.، ١٩٧٩، صفحة ٢٤٣_٢٥٩).

_ "ضبة بن محمد الأسدي":

وفي سنة (٣٦٩هـ)، "في شهر رمضان بُعث إلى ضبة بن محمد الأسدي وكان من أكابر الزعار، وقد قتل النفوس ونهب الأموال وتحصن بعين التمر نيفاً وثلاثين سنة والوصول إليهما يصعب فلما طال عليه العسكر هرب وترك أهله" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج٧، ١٧٤).

- "موقف الشطار والعيارين من التسلط الأجنبي":

العيارون ليسوا جميعاً لصوص وقطاع طرق، وقد استغل وجودهم السلاجقة أنفسهم، بغية تشتيت شمل الناس ووحدتهم، لذلك رأى الخليفة (المقتفي) أن يرسم مشروعاً للاستفادة من قدرات العيارين، ويتقرب إليهم ليوجههم نحو تحقيق أهدافه السياسية ضد السلاجقة، وكان للعيارين قوة لا يستهان بها، فدعاهم إلى الانضمام إلى جيش بغداد الذي عمل على

بنائه، وبالفعل فقد انضم إليه الكثير من هؤلاء العيارين بشوق ولهفة، وكان أول نتيجة لهذه السياسة الواقعية قد ظهرت في حوادث حصار بغداد من قبل الجيش السلجوقي سنة (٥٥٢هـ) (القيسي، ٢٠٠٧، صفحة ٨٩_٩٠).

يذكر ابن الجوزي بأن رجلاً من العيارين اسمه (أبو الحسن العيار)، جمع معه من الرجال والشطار، وقام بعمل فدائي أثناء حصار السلاجقة، فتسلقوا سور المدينة، وباغتوا طلائع العسكر السلجوقي وهم نيام ونهبوا ثم عادوا، وقد شاعوا في الجيش الخوف (الجوزي، ١٣٥٨ هـ، ج١٠، صفحة ١٧٤).

والملاحظ أن نشاط العيارين قد ضعف إلى درجة ملحوظة بعد تحرر العراق من الهيمنة السلجوقية، ففي سنة (٥٩٠هـ)، أفلح الخليفة (الناصر لدين الله) أن يتوج مشروع (المقتفي) بأن شجع الحركة أن تتبنى مشروعه الواسع في بناء حركة الفتوة التي صارت الشغل الشاغل في سياسة الخليفة (الناصر) الداخلية (جواد، ١٩٦٠، صفحة ٢٤١_٢٤٥).

- **"موقف العامة من الشطار والعيارين"**:

لما علم الناس أن هؤلاء إنما يحميهم الوزير والشحنة، وأنهما متعاونان معهم، ثاروا وأغلقوا باب الجامع وكسروا منبر الخطيب، وهو إيذان بإعلان الثورة، وخرجوا إلى الشوارع (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ١٠٥_١٠٦): "وتلقوا السلطان مسعود في الميدان، ومعهم ابن الكواز الزاهد فاستغاثوا إليه فلم يجبهم فعادوا مراراً وهو لا يلتفت" (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ١٠٦).

وكان ابن عم السلطان (مسعود) مع العيارين يسرق أموال التجار ويقتل الأبرياء، ويقال أن السلطان عندما عمّت الثورة الهيجان قبض على (ابن قاروت السلجوقي) هذا وأمر بصلبه بباب داره في محلة درب صالح، وصلب معه ثلاثة من أصحابه السلاجقة، وأباح دماء العيارين فسكن الناس (الجوزي أ.، ١٣٥٨ هـ، صفحة ج١٠، ١٠٦_١٠٧).

فالتفسير الاجتماعي لهذه الحالة، هو الصراع الناتج عن شعور الجماعات المحرومة والمسلوبة حقوقها وأهدافها، وبالتالي دفعهم ذلك للسؤال عن إعادة توزيع المصادر النادرة كالسلطة والنفوذ والاعتبار والسمعة في الممارسات الفعلية للحقوق والواجبات، وهذا بدوره يزيد احتمال ظهور الصراع بينهما وبين الجماعة المتسلطة والسالبة لحقوق وواجبات الجماعات الأخرى، كذلك كلما قلّت قنوات تصريف وتنفيس القيم والحيف والضغط الممارس من قبل الجماعة المتسلطة على الجماعة المسلوبة (عمر، ١٩٨٢، صفحة ٣٩_٤٠).

_ "الاستنتاجات":

١- وجّه الشطار نشاطهم إلى الهيئة الاجتماعية، وكانت غايتهم التمرد على النظام الاجتماعي والاقتصادي لفئة اجتماعية وجدت نفسها ضحية هذا النظام الجائر.

٢- كانت ظاهرة البخل وحدها مبرراً كافياً لهؤلاء العيارين والشطار الذين ينتقمون من أصحابها، تقديراً منهم لظاهر الجود.

٣- ظهر عدد من الشطار والعيارين البارزين في المجتمع البغدادي، والذي يعد من أبرزهم، أو لعله لفت انتباهي هو (ابن حمدي)، لصّ بغداد الظريف، كان موضع اعجاب العامة، اشتهر بأنه تخلق بخلائق الفروسية.

٤- الشطار والعيارون ليسوا جميعاً لصوص وقطاع طرق، وقد استغل وجودهم السلاجقة، بغية تشتيت شمل الناس ووحدتهم.

٥- يحظى هؤلاء الخارجون على القانون بإعجاب العامة في عصرهم فيتعاطفون معهم، ويشيدون بأفعالهم ويتسترون عليهم.

٦- نرى أن أشهر الشطار والعيارين في التراث العربي، لهم واقع تاريخي يتفق مع "تنميطهم" الفني إلى حد كبير، واستطاعوا أن يحفروا أسماءهم في ذاكرة التاريخ القومي والشعبي على السواء.

٧- تأتي جدوى هذه الدراسة في البحث عن دور الإنسان العربي البسيط، المغلوب على أمره، في قدرته على التمرد على واقعه ومحاولته السعي لتغييره في ضوء تراثه الشعبي (الموضوعي) الذي يختلف كثيراً عن تصور الأدب الرسمي الذي افتقد دوره التحريضي منذ أمد بعيد.

٨- جاء هذا الأدب الشعبي تعبيراً فنياً صادقاً، يعكس أحلام المجتمع الشعبي وأماني المستضعفين والمعدمين في التحرير من كل قوى الظلم والقهر، مبشراً بحياة جديدة قوامها العدل والحرية والمساواة.

المراجع

أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي (ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م) ابن سيده. (دون تاريخ). *المخصص*. بيروت: دار الفكر.

أبو الريحان محمد بن أحمد الخوترزمي (ت ٤٤٠هـ) البيروني. (١٩٢٣). *الآثار الباقية عن القرون الخالية*. لايزبك: دون مطبعة.

أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) القلقشندي. (١٩١٣). *صبح الأعشى في صناعة الانشا*. القاهرة: دون مطبعة.

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م) ابن الجوزي. (١٣٥٨ هـ). *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*. الهند: حيدر آباد الدكن.

أبو الفضل أحمد بن الحسين (ت ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٧ م) الهمذاني. (١٩٩٣). *مقامات بديع الزمان الهمذاني*. (شرح علي بو ملحم، المحرر) بيروت: مكتبة الهلال.

أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) الميداني. (١٩٧٢). مجمع *الأمثال* (المجلد ٣). (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المحرر) بيروت: دار الفكر.

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) ابن منظور. (٢٠١١). *لسان العرب* (الإصدار ج٢). بيروت: دار صادر.

أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م) الصولي. (١٩٧٩). *كتاب الأوراق*. بيروت: دار المسيرة.

أبو عبيدة البكري. (١٩٥٨). *الأمثال*. (تحقيق إحسان عباس، المحرر) الخرطوم: جامعة الخرطوم.

أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) الجاحظ. (١٩٨٠). *البخلاء*. لبنان: دار بيروت.

أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) الجاحظ. (١٩٨٦). *الحيوان*. (تحقيق يحيى الشامي، المحرر) بيروت: دار مكتبة الهلال.

أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨ م) الجاحظ. (دون تاريخ). *البيان والتبيين* (المجلد ج٢). بيروت: دار الجيل.

أبو علي أحمد بن عمران (ت ٢٩٠هـ) ابن رسته. (١٨٩١). *الأعلاق النفيسة*. ليدن: بريل.

أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م) ابن مسكويه. (١٩١٤). *تجارب الأمم وتعاقب الهمم*. (تحقيق آمدروز، المحرر) مصر: دون مطبعة.

أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م) التنوخي. (١٩٧٨). *الفرج بعد الشدة*. (تحقيق عبود الشالجي، المحرر) بيروت: دار صادر.

أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) التنوخي. (١٩٧٣). *نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة*. (تحقيق عبود الشالجي، المحرر) بيروت: دون مطبعة.

أحمد أمين. (١٩٥٢). *الصعلكة والفتوة في الإسلام*. مصر: دار المعارف.

أحمد بن علي (ت ٢٨٤هـ) اليعقوبي. (١٩٨١). *البلدان*. ليدن: دي خويه.

أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ) البلاذري. (دون تاريخ). *فتوح البلدان*. لبنان: منشورات دار المعارف.

آدم متز. (١٩٦٧). *الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري* (المجلد ٤). (محمد عبد الهادي أبو ريده، المترجمون) بيروت: دار الكتاب العربي.

الأصفهاني. (١٩٦١). *محاضرات الأدباء* (الإصدار ج٣). بيروت: دار مكتبة الحياة.

الخليل بن أحمد (ت ١٧٤هـ) الفراهيدي. (دون تاريخ). *العين* (الإصدار ج٧). (عبد الحميد هنداوي، المحرر) بيروت: دار الفكر.

بدري محمد فهد. (١٩٦٧). *العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري*. بغداد: دون مطبعة.

بدري محمد فهد. (١٩٧٣). *تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥٥٢_٦٥٦ هـ)*. بغداد: دون مطبعة.

جرجي زيدان. (دون تاريخ). *تاريخ التمدن الإسلامي*. بيروت: دار مكتبة الحياة.

حاتم الكعبي. (١٩٧٢). *السلوك الجمعي*. بغداد: دون مطبعة.

حسين علي قيس محمد القيسي. (٢٠٠٧). *طبيعة المجتمع العراقي في العصر العباسي المتأخر (دراسة تأريخية_ اجتماعية) (٤٤٧_٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥_١٢٥٨ م)*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

خطاب صكار العاني ونوري خليل. (١٩٧٩). *جغرافية العراق*. بغداد: جامعة بغداد.

سعيد عبد الفتاح عاشور. (١٩٨٦). *دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية* (المجلد ٢). الكويت: ذات السلاسل.

شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط (ت٦٥٤ هـ) ابن الجوزي. (١٩٥٢). *مرآة الزمان في تاريخ الأعيان*. الهند: حيدر آباد الدكن.

شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البماء الشامي البشاري (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) المقدسي. (١٩٠٩). *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (المجلد ٢). ليدن: بريل.

شهاب الدين أبي عبدالله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٥ م) ياقوت الحموي. (١٩٧٧). *معجم البلدان*. بيروت: دار صادر.

عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) ابن خلدون. (دون تاريخ). *المقدمة*. بيروت: دار القلم.

عبد العزيز الدوري. (١٩٤٥). *دراسات في العصور العباسية المتأخرة*. بغداد: دون مطبعة.

عبد العزيز الدوري. (١٩٩٥). *تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري* (المجلد ط٤). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ابن الأثير. (١٩٩٧). *الكامل في التاريخ* (الإصدار ج٦). (عمر عبد السلام، المحرر) بيروت: دار المعارف.

كي ليسترنج. (١٩٨٥). *بلدان الخلافة الشرقية* (المجلد ط٢). (بشير فرنسيس وكوركيس عواد، المترجمون) بيروت: مؤسسة الرسالة.

مجموعة من الباحثين. (١٩٨٣). *العراق والتاريخ*. بغداد: دون مطبعة.

محمد بن أبي بكر القادر (ت ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٧ م) الرازي. (١٩٨١). *مختار الصحاح*. بيروت: دار الكتاب العربي.

محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) الطبري. (دون تاريخ). *تاريخ الرسل والملوك* (الإصدار ج٧). الأردن: دار الأفكار الدولية.

محمد بن علي (ت ٣٥٦هـ) ابن حوقل. (١٨٨٣). *صورة الأرض* (المجلد ط٢). (كريمرز، المحرر) ليدن: مطبعة بريل.

محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) الصولي. (١٩٧٩). *أخبار الراضي بالله والمتقي لله*. (هيروث دن، المحرر) بيروت: دار المسرة.

محمد رجب النجار. (١٩٨٩). *الشطار والعيارين في التراث العربي* (المجلد ٢). دوم مكان: ذات السلاسل للطباعة.

محمد صالح داود القزاز. (١٩٧١). *الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير*. النجف: دون مطبعة.

محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ) الزبيدي. (١٩٩٤). *تاج العروس*. (علي شيري، المحرر) بيروت: دار الفكر.

مصطفى جواد. (١٩٦٠). الفتوة والفتيان قديماً. *مجلة لغة العرب*.

مصطفى عباس الموسوي. (١٩٨٢). *العوامل التأريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية*. العراق: دون مطبعة.

معن خليل عمر. (١٩٨٢). *نقد الفكر الاجتماعي المعاصر*. بيروت: دون مطبعة.

يوسف خليف. (١٩٥٩). *الشعراء الصعاليك*. القاهرة: دار المعارف.